تفسير قصار السور: سورة المسد

لفضيلة الشيخ الدكتور: عبد العزيز بن أحمد البداح

بسم الله الرحمن الرحيم، الحمد لله رب العالمين وصلى الله وسلم على نبينا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين أما بعد:

فهذا تفسير سورة المسد ضمن دروس شرح قصار السور، هذه السورة لها أسماء من أسمائها المشهورة سورة المسد وسورة تبت يدا أبي لهب وتب، وقد جاء في سبب نزولها ما جاء في البخاري ومسلم أنه لما نزل قوله تعالى وأنذر عشيرتك الأقربين صعد النبي ﷺ على الصفا وقال واصباحاه فاجتمع الناس إليه فقال لهم يا بني عبد مناف يا بني عبد المطلب فقالوا ما بالك؟ فقال أرأيتكم لو أخبرتكم أن خيلًا تخرج بسفح هذا الجبل أكنتم مصدقي؟ قالوا: ما جربنا عليك كذبًا، قال فإني نذيرٌ لكم بين يدي عذابٍ شديد، فقال أبو لهب تبًا لك ألهذا جمعتنا؟ فأنزل الله عز وجل هذه السورة.

شرح هذه السورة على وجه الإجمال قوله عز وجل تبت: قيل خسرت وقيل: ضلت وقيل: هلكت وقيل: صفرت من كل خير، ومما يقال في هذا: "أشابةٌ أم تابة؟" أي هالكةٌ من الهرم، وأصل التب والتباب: الاستمرار في الخسران، وقد قال تعالى: ﴿... وَمَا كَيْدُ فِرْعَوْنَ إِلَّا فِي تَبَابٍ﴾ [غافر:٣٧] يعني: في خسران.

تَبَّتْ يَدَا: خص الله اليدين بالتباب لأن العمل أكثر ما يكون بهما، وقيل المراد باليدين: نفسه وقد يعبر عن النفس باليد، كما قال تعالى في سورة الحج: بما قدمت يداك وهذا التعبير معروفٌ في كلام العرب، فإنهم يعبرون ببعض الشيء عن كله.

قوله عز وجل وَتَبَّ: التب الأول دعاء تَبَّتْ يَدَا: هذا دعاء، وقوله في آخر الآية وَتَبَّ: هذا خبر، أي أهلكك الله وقد هلكت وفي قراءة عبد الله بن مسعود وأبي بن كعب: وقد تب.

أبا لهب اسمه: عبد العزى عم النبي ﷺ وامرأته أم جميل أروى بنت سفيان وسمي باللهب لحسنه وإشراق وجهه، وهنا في هذه الآية كناه الله عز وجل ولم يسمه، قيل أن الله عز وجل كناه ولم يسمه لأسباب:

الأمر الأول: لأن اسمه عبد العزى والعزى صنم ولم يضف إليه لأن في ذلك نسبةً إلى هذا الصنم.

الأمر الثاني: أنه كان بكنيته أشهر منه باسمه فجيء بالكنية.

الأمر الثالث: أن الاسم أشرف من الكنية، فحطه الله عز وجل عن الأشرف الذي هو الاسم إلى الأنقص الذي هو الكنية.

قوله عز وجل ﴿مَا أَغْنَى عَنْهُ مَالُهُ وَمَا كَسَبَ﴾[المسد:٢]، ماله: رأس ماله وما كسب: ربح رأس ماله، وقيل ماله: ما ورثه وما كسب: يعني ما كسبه بنفسه وقيل: ما أغنى عنه ماله: قيل ماله جميع ماله، وما كسب: أولاده وهذا الذي يميل إليه أكثر أهل التفسير أن المراد بقوله وما كسب يعني أولاده، لأنه جاء في الحديث عند أحمد وابن ماجه وغيرهما أن النبي ﷺ قال: **((خير ما كسب الرجل من عمل يده وإن ولد الرجل من كسبه))**.

قوله عز وجل ﴿سَيَصْلَى نَارًا ذَاتَ لَهَبٍ﴾[المسد:٣] : إخبارٌ بدخوله النار ومقاساته حرها، قوله سبحانه ﴿وَامْرَأَتُهُ حَمَّالَةَ الْحَطَبِ﴾[المسد:٤] المراد بامرأته: أم جميل، قد كانت عوراء واختلف في المراد بحمالة الحطب فقيل حمالة الحطب يعني أنها تمشي بالنميمة، قال ابن كثيرٍ رحمه الله: وهذا هو الصحيح، وقيل تضع الشوك في طريق النبي ﷺ وأصحابه، وقيل حمالة الخطايا والذنوب كما قال سبحانه: وهم يحملون أوزارهم على ظهورهم، وقيل: كانت على كثرة مالها تحمل الحطب على ظهرها لشدة بخلها فعيرت بالبخل.

قوله عز وجل ﴿فِي جِيدِهَا حَبْلٌ مِنْ مَسَدٍ﴾[المسد:٥] الجيد يعني: العنق، والمسد: الليف وهذا تصويرٌ لحالها في الدنيا تحقيرًا لها وحطًا عليها، وقيل أن هذا بيانٌ لحالها في الآخرة.

هذه السورة الكريمة فيها لطائف:

اللطيفة الأولى: أن هذه السورة علمٌ من أعلام نبوته ﷺ فإنه أخبر بإخبار الله له أن أبا لهبٍ وزوجه يدخلان النار وذلك أنهما يموتان على الكفر فكان الأمر كذلك وكانا على الكفر وماتا عليه.

اللطيفة الثانية: الرفع والخفض بيد الله تعالى كما جاء في صحيح مسلم ((إن الله يرفع بهذا الكتاب أقوامًا ويضع به آخرين)) فإن أم جميل من بيت عز وشرف وفي منصب ثروة وجدة إلا أن القرآن وضع شأنها وحقر حالها فوصفها تحمل حزمة الشوك في جيدها كما يفعل الحطابون تهوينًا لشأنها وحطًا عليها.

اللطيفة الثالثة: من حكمة الله تعالى أنه قد يبتلي المؤمن بكفر أقرب الناس إليه فهذا إبراهيم وأبوه ونوحٌ وولده ولوطٌ وزوجه والنبي ﷺ وعمه.

اللطيفة الرابعة: ﴿مَا أَغْنَى عَنْهُ مَالُهُ وَمَا كَسَبَ﴾[المسد:٢] أذله الله وأخزاه وأهلكه وأرداه فما نفعه المال والولد والجاه فأصابه الله عز وجل بداءٍ معدٍ بعد وقعة بدر وترك أيامًا حتى أنتن بعد موته واستُأجر له من يدفنه.

اللطيفة الخامسة: يجهد أعداء الرسل في أذيتهم وإلحاق الشر بهم لكن العبرة بالعاقبة والشأن في الجولة الأخيرة، أقبل عتبة وقيل عتيبة بن عبد العزى على النبي ﷺ فتفل عليه فقال ﷺ اللهم سلط عليه كلبًا من كلابك فخرج عتيبة أو عتبة إلى الشام وعند المنام كان خائفًا مذعورًا من دعوة النبي ﷺ فأحاط به حراسه فجاء أسدٌ حتى تمكن منه والتهمه وحمالة الحطب جاءت ذات يومٍ حاملةً حزمة حطب فأعيت فقعدت على حجرٍ لتستريح فأتاها ملكٌ من خلفها فجذبها فأهلكها.

اللطيفة السادسة: ما أغنى عنه ماله وما كسب إذا أقبلت حقائق الآخرة تبين للمعاند ضعفه المبين وعجزه المستبين وأن المال والمكانة لا تنفع والجاه والمرتبة لا تدفع كما قال تعالى عن الهالك: ﴿مَا أَغْنَى عَنِّي مَالِيَهْ * هَلَكَ عَنِّي سُلْطَانِيَهْ﴾[الحاقة:٢٩-٢٨]، وحالهم كما قال تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْ أَنَّ لَهُمْ مَا فِي الأَرْضِ جَمِيعًا وَمِثْلَهُ مَعَهُ لِيَفْتَدُوا بِهِ مِنْ عَذَابِ يَوْمِ الْقِيَامَةِ مَا تُقُبِّلَ مِنْهُمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾[المائدة:٣٦]، وفي الآية الأخرى ﴿وَلَوْ أَنَّ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا مَا فِي الأَرْضِ جَمِيعًا وَمِثْلَهُ مَعَهُ لافْتَدَوْا بِهِ مِنْ سُوءِ الْعَذَابِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَبَدَا لَهُمْ مِنَ اللَّهِ مَا لَمْ يَكُونُوا يَحْتَسِبُونَ * وَبَدَا لَهُمْ سَيِّئَاتُ مَا كَسَبُوا وَحَاقَ بِهِمْ مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ﴾[الزمر:٤٨-٤٧]

اللطيفة السابعة: انتصر الله لخليله وانتقم لرسوله وحبيبه فمقت مناوئيه وجعل الذلة على مخالفيه وكتب الغلبة لأتباعه ومؤيديه ﴿كَتَبَ اللَّهُ لَأَغْلِبَنَّ أَنَا وَرُسُلِي إِنَّ اللَّهَ قَوِيٌّ عَزِيزٌ﴾[المجادلة:٢١]، ﴿إِنَّا لَنَنصُرُ رُسُلَنَا وَالَّذِينَ آمَنُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيَوْمَ يَقُومُ الأَشْهَادُ﴾[غافر:٥١].

اللطيفة الثامنة: ﴿تَبَّتْ يَدَا أَبِي لَهَبٍ وَتَبَّ﴾[المسد:١] فيه أثر الأسماء والكنى على أصحابها فإن الله أراد أن يحقق نسبته إلى النار بأن يدخله فيها فيكون أبًا لها تحقيقًا للنسبة وإمضاءً للفأل والطيرة التي اختارها لنفسه، فإن أهله

سموه أبا لهب لإشراق وجهه وحسنه وصرفهم الله أن يقولوا أبو النور أو أبو الضياء وأجرى على ألسنتهم أن يضيفوه إلى اللهب الذي هو مكروه ثم حقق ذلك سبحانه بأن جعلها مقره.

اللطيفة التاسعة: في هذا السورة أن الدين ليس خاصًا بالأقربين أو الأبعدين وإنما هو للمؤمنين المنقادين قربوا أم بعدوا وفي هذا تظهر حكمة الله تعالى يهدي من يشاء ويضل من يشاء ويتجلى فيها عالمية هذا الدين وما أرسلناك إلا كافة للناس بشيرا ونذيرًا.

اللطيفة العاشرة: حمالة الحطب: إشارةٌ إلى ذم النميمة والسعاية بين الناس بقالة السوء وهي من الكبائر، جاء في مسلم لا يدخل الجنة نمام، وقال أكثم بن صيفي لبنيه: إياكم والنميمة فإنها نارٌ محرقة وإن النمام ليعمل في ساعة ما لا يعمله الساحر في شهر، وقال بعضهم إن النميمة نارٌ ويك محرقةٌ... ففر عنها وجانب من تعاطاها.

اللطيفة الحادية عشرة: حَمَّالَةَ الْحَطَبِ إشارة إلى خطورة أذية المؤمنين وعباد الله الصالحين ومن كان هذا شأنه فهو من المفلسين عند قيام العباد لرب العالمين، جاء عند مسلم **((أتدرون من المفلس؟ قالوا المفلس من لا درهم له ولا متاع، قال المفلس من يأتي يوم القيامة بصلاةٍ وصيامٍ وزكاة ويأتي وقد شتم هذا وضرب هذا وأخذ مال هذا فيُؤخذ من حسناته فإذا فنيت حسناته أُخذ من سيئاتهم فطرحت عليه ثم طرح في النار))**.

اللطيفة الثانية عشرة: يسلي الله المؤمنين ويصبر الدعاة إلى الدين بما جرى على خير خلق الله أجمعين من البلاء والضراء والشدة والبأساء حتى تطمئن قلوبهم وتهدأ نفوسهم عند النظر إلى ما أصاب نبيهم ونال قدوتهم.

اللطيفة الثالثة عشرة: عظم البلاء الذي واجهه النبي ﷺ في شدته وأنه من أقرب الناس إليه وهو عمه، جاء عند البخاري **((أشد الناس بلاءً الأنبياء ثم الأمثل فالأمثل يبتلى الرجل على قدر دينه))**، جاء عند أحمد والحاكم **((قال طارق بن عبد الله إني بسوق ذا المجاز إذا أنا بإنسانٍ يقول أيها الناس قولوا لا إله إلا الله تفلحوا، وإذا رجلٌ خلفه يرميه من ساقيه وعرقوبيه ويقول أيها الناس: إنه كذابٌ فلا تصدقوه، فقلت من هذا؟ فقالوا: محمد يزعم أنه نبي وهذا عمه أبولهب يزعم أن كذاب))**.

وصلى الله وسلم وبارك على نبينا محمد